أولاً_ الحضارة وتعريفاتها:

نحن أمام تعريفات كثيرة للحضارة، وتختلط أحياناً بعض المصطلحات مع مصطلح الحضارة، كالثقافة والمدنية.

فبشكل عام؛ الحضارة لغة: هي الإقامة في الحَضَر أي المدن. واصطلاحاً: يعود أصلها الغربي إلى المدينة، وهنا يطابق الأصل العربي (الحاضرة) بمعنى المدينة، والمتحضر ساكن الحاضرة، وشاع في العربية: سكان الحواضر، وأهل الحواضر، في مقابل البادية وأهل البادية.

ولفظ الحضارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعاً، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي، وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر؛ فإن المعاجم اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي: الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي والاقتصادي في الحضر، وبعبارة أخرى أكثر شمولاً، هي: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية والفكر ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية، ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة –كمّاً وكيفاً– التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها: الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها: الأطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

ويمكن بالتالي تعريف الحضارة بالآتي: «إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ... والتنوع بأحوال الترف وما تتلون به من العوامل»[1].

وعرّف ابن خلدون الحضارة، فقال: «هي نمط من الحياة المستقرة يُنشئ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة العيش والعمل»[1].

---

(١) انظر الحضارة: حسين مؤنس، ص٣ – ١٥.

ويمكن القول إن الحضارة بمعناها العام هي كل ما أبدعه الإنسان، وكل ما أضافه في رحلته الطويلة الشاقة على الأرض منذ تعلم إشعال النار قبل حوالي خمسة آلاف سنة ليقهر الليل ويبعد عنه الحيوانات المفترسة ويطهو طعامه، وصولاً الى تفتيت الذرة والهبوط على سطح القمر ونقل الصوت أو الصورة آلاف الكيلومترات.

والحقيقة أنه لا تخلو أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات؛ بدائية كانت أو متقدمة، من أن تكون لها ثقافة ما تربطها وتُكسبها طابعها المتميز، والثقافة هي طريقة في العيش وموقف من الحياة والوجود، ونظام قيمي واجتماعي يحكم مظاهر الحياة ومفرداتها جميعها، وينعكس في أشكال النشاط والسلوك كلها، ويمنح المجتمع هويته ويحافظ على تماسكه.

أما الحضارة فوصف زائد على الوجود الثقافي للجماعة، يتضمن معنى التقدم، والتفوق النوعي والكمي، والإنجاز على مستوى الواقع، ودرجة ملحوظة من التأثير في المحيط التاريخي، وفاعلية في صنع أحداثه وتوجيهها؛ فاعليلة قد تصل حد تشكيل منعطف ومفصل مشع فيه؛ زمانياً ومكانياً.

ويمتاز اللفظ العربي (حضارة) المشتق من الحضور في الدلالة على معنى الفاعلية، فالعلامة الفارقة في الفعل الحضاري هي حضور المشهد التاريخي وشهوده وعدم الغياب عنه وتأدية دور فيه، وكثير من المجتمعات الإنسانية تقتصر على مجرد الوجود دون الحضور، ومن ثم لا يمكن إطلاق مفهوم الحضارة عليها مهما كان نتاجها الذهني والمادي، طالما وقفت فقط عند مجرد الوجود.

---

(١) انظر الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية: ياسين، ص١٥ وما بعد.

وإذا كانت كل حضارة تمتلك خصوصية ثقافية هي بمثابة الروح لها، فإن الحضارة ليست لازمة لوجود الأمة الثقافي.

وإذا أردنا تعريف الحضارة هنا؛ فهي دراسة الحضارة كظاهرة أساسية من مظاهر الماضي الإنساني، أمر ارتقى في العصر الحديث بأوروبة كسائر الدراسات الأخرى، إذ دلّوا عليه باسم: civilization الذي دخل مصطلح العلوم متأخراً في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، والكلمة مشتقة من سكان المدن، ولذلك ترادف كلمة المدنية من ناحية لغوية، أما ترجمتها العربية (حضارة)؛ فيعني لغوياً: الشيء نفسه؛ لأن الحضارة بفتح الحاء أو كسرها، تعني سكان الحضر أو خلاف البادية، والبادية في عرف العرب ليست الصحراء فقط دائماً بل تشمل الريف أيضاً، فالحضارة والحالة هذه مطابقة أيضاً للمدنية، والحضارة في مفهومها العام هي حركة المجتمع ونشاطه بجوانبه كافة، المادية منها والمعنوية وتشمل صنع الخيرات المادية وإنتاجها، والمعارف العلمية والمذاهب والأفكار الفلسفية، كما تشمل النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والإنجازات الفكرية والحقوقية والفنية والقيم والتقاليد والمؤسسات المختلفة.

إن الحضارة هي الحصيلة التراكمية التاريخية لمسيرة أي شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات، إنها البنية الكلية، والمحصلة العليا لإنجازاته في الميادين كافة، بحيث تُظهر هذه الإنجازات بمظاهرها المتعددة وبُناها المختلفة، نسيجاً متكاملاً ومتفاعلاً ذا وحدة عضوية، يحمل في إطاره طابع الشعب الذي أسهم في إنتاج هذه المعطيات التي تعبر عن فعاليته وقدراته وتجسّد إبداعاته المختلفة[1].

أما المدنية: فهي الجانب المادي من مظاهر الحضارة، وهي ما أنتجه العقل الإنساني من مخترعات متطورة.

---

(١) انظر على عتبات الحضارة، بحث في السنن وعوامل التخلف والانهيار: حندية، ص٢٥، ٢٦.

والثقافة: هي الجانب المعنوي من مظاهر الحضارة، وتعني: العلم والمعرفة والآداب والفنون[1].

ونأتي إلى الحضارة في المدلول الإسلامي:

إن الحضارة هنا هي الحضور والشهادة بمعانيها جميعها التي ينتج عنها نموذج إنساني، يستبطن قيم التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي، يتعلق بوحدانية خالق الكون، وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته هي في تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بميزاتها، وحسن التعامل مع المسخرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنها مخلوقات تسبح الله، أو رزق لا بد من حفظه وصيانته. كذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة، وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة[2].

ونأتي إلى تعريف الحضارة عند بعض فلاسفة الغرب:

ـ يقول ول ديورنت: إنها نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

---

(١) الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية: ياسين، ص١٥ وما بعد.

(٢) انظر الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم: حبنكة، ص١٩ وما بعد. شمس الحضارة العربية الإسلامية: النهار، ص١٤ وما بعد.

ـ ويقول جورج باستيد: الحضارة هي التدخل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التمرد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاص العناء البشري.

ـ ويقول تايلر: إنها ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون والآداب، والقوانين والعادات، والقدرات والتقاليد الأخرى جميعها التي يكسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع[1].

ثانياً- ابن خلدون والبعد الديني في الحضارات والتفسير الإسلامي للحضارة:

يبدو أن ابن خلدون قد أدرك الفرق بين الثقافة والحضارة، وذلك في قوله تحت عنوان: (في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر):«وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ قال صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه: فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده. وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم...»[2].

وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير، فهو إذن يفرق بين العمران والحضارة، ويبدو أن العمران في مفهومه يقابل

---

(١) انظر المراجع المتقدمة.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص١٢٣.

الثقافة، فهو يقول في خاتمة الكتاب الأول من المقدمة وعنوانه: (في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما إلى ذلك من العلل)، يقول: «اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات... إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد»[1].

ويؤكد ابن خلدون على أن الحضارة تمثل الطور الحرج من أطوار الدولة، والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال من عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت تفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، وتقع وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه.

ويعد ابن خلدون من أفضل من استعملوا المذهب الديني في تفسير التاريخ، فإنه يفكر في كل شيء، ويبحث عن أسرار التاريخ والعمران وحركتها بحثاً طويلاً، ويدرس أحوال المدن والدول ونظمها والمجتمعات وما يطرأ عليها.

لقد حاول ابن خلدون أن يبين الظاهرة التي يتناولها بالتحليل والتفسير من السنن الاجتماعية التي لا تتبدل، وهكذا يمكن القول: إنه اهتدى إلى وضع علمه الجديد بتدبره للتصورات الاجتماعية والتاريخية الواردة في القرآن الكريم من جهة، وباهتدائه بمنهج علم الحديث وأصول الفقه من جهة أخرى، وبناء على ذلك يمكن القول: إن علم الاجتماع الخلدوني هو نتاج التفكير العلمي الإسلامي الذي ينشد فهم سنن الله في العلم المادي والعالم الاجتماعي على حد سواء، ويظهر اعتماد ابن خلدون على القرآن الكريم من السطور الأولى التي بدأ بها مقدمته، ويكفي أن نشير إلى أن تسميته لعلمه الجديد «علم

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص٣٥-٤١.

العمران» استمده من القرآن الكريم[1] في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[2].

ومن الأهمية البالغة الإشارة إلى أن كلمتي (حضارة) و(تحضير) لم تكونا شائعتين في استعمالات العربية اللغوية في البداية وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية، وإذا كان ابن خلدون قد نبّه عليهما واستخدمهما في مقدمته، إلا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو «العمران البشري» الذي يقابل الحضارة البشرية.

وقد وقع كثير من الباحثين في خطأ القول إن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج، وأنه لا توجد أية محاولة لتقديم مفهوم متكامل عن الحضارة وفقاً للمنظور الإسلامي.

فنحن حين نتأمل النص القرآني، يمكننا العثور على إجابات متعددة لعشرات التساؤلات التي تثار حول الإشكاليات الحضارية ومحاولة فهمها وهذا يؤكد دور الفكرة الدينية في تكوين العمران والحضارة، وبذلك تؤدي فعاليتها دورها في حركة التاريخ[3].

والأمثلة التاريخية عن الحضارات القديمة كثيرة، فالبعد الديني في الحضارة المصرية القديمة أدى دوراً مهماً في تبديه في كل مظهر من مظاهر الحياة عند الفراعنة، حيث اصطبغ بالصبغة الدينية، فالسياسة والفن والأخلاق والعلم تأثروا بالدين، وارتبطوا به ارتباطاً ترك بصماته على حياة الإنسان المصري القديم، ولقد بذل هؤلاء كثيراً من مالهم ووقتهم

---

(١) سورة الروم، الآية ٩.
(٢) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: الخطيب، ص٥٦- ٥٨.
(٣) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: الخطيب، ص٦٥ - ٦٦.

وجهودهم في بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك ضمن عقائدهم الخاصة حول البعث، وقد دفنوا مع موتاهم أدواتهم التي كانوا يستخدمونها قبل الموت[1].

وحظيت الديانة الكونفوشوسية في الصين بأهمية كبيرة في التاريخ الصيني، وأصبحت تعاليمها ممثلة للتراث الفكري للشعب الصيني، وكانت ذا علاقة بالتراث الأخلاقي والفكري لمجتمعه وبيئته. واعتقد البوذيون بالتناسخ الذي كان له أثره في تعامل البوذي في الحياة[2].

وفي الهند مثّل الإطاران الديني والفلسفي أهم ما أنتجته الآداب الهندية على مدار التاريخ، ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة البرهمية الهندية اسم (الفيدا) ومعناها المعرفة أو العلم[3].

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية الفارسية اسم (الأبستاق أو الأوستا) ومعناه الأصل أو الأساس، وهذه الزرادشتية استُعملت على شكل من الدين مصدره فارس القديمة، وتشكل الألوهية العنصر المركزي في هذه الديانة[4].

وعند اليونان: تعد (الإلياذة والأوديسة) من أقوى عوامل التجمع الفكري والوجداني لبلاد اليونان، وتنسبان إلى هوميروس، وفي الملحمتين أفكار في الطبيعة الإلهية تضفي الألوهية على ظواهر الطبيعة[5].

---

(١) انظر عن الحضارة المصرية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٣٢ وما بعد. والحضارة العربية الإسلامية: أبو خليل، ص٦٥ ومابعد.

(٢) انظر عن الحضارة الصينية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٢٧٤ وما بعد. والحضارة العربية الإسلامية: أبو خليل، ص٤١ ومابعد.

(٣) انظر عن الحضارة الهندية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٢٥١ وما بعد. والحضارة العربية الإسلامية: أبو خليل، ص٣٥ ومابعد.

(٤) انظر عن الحضارة الفارسية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٢٣٦ وما بعد. والحضارة العربية الإسلامية: أبو خليل، ص٤٥ ومابعد.

(٥) انظر عن الحضارة اليونانية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٢٩٦ وما بعد. والحضارة العربية الإسلامية: أبو خليل، ص٤٧ ومابعد.

وكان القانون الروماني والفروسية الرومانية يعبران عن أصل واحد في الحضارة الرومانية، وهو العقيدة الوثنية التي كانت شائعة بين الرومان[1].

والمتأمل للعقيدة في أسفار اليهود وتطورها يرى أن الديانة اليهودية كانت في أصلها - كما ينبئنا القرآن - ديانة توحيد تتصف بها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال والتجرد من مظاهر النقص جميعها، والمخالفة للحوادث في كل شيء كما هو الشأن في الدين الإسلامي.

ولكن يظهر من التأمل في أقدم أسفار توراتهم، أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم لهذه الأسفار، فتصوروا الله تعالى في صورة مجسمة.

وبالنسبة للمسيحية، فإن مكان الأناجيل فيها مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوها من أفكار هي شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء، أي: إنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم.

وكانت الجزيرة العربية قبل نزول القرآن الكريم تعج بركام من العقائد والتصورات، ومن بينها ما نقلته من الفرس، وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية في صورتها المنحرفة مضافاً إلى ذلك وثنيتها الخاصة، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك في قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ

---

(١) انظر عن الحضارة الرومانية القديمة: التاريخ القديم وما قبله: فرح، ص٣٣٤ وما بعد.

سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}[1].

ونقصد من كل ما أوردناه، أن حقيقة الذاتية الحضارية لأمة ما تتبدى من خلال أبعادها الدينية والفكرية التي تكون بمثابة النهج الدافع لصياغة هذه الأبعاد في حركة الواقع، وما الوسائل المادية (المدنية) إلا أدوات تستخدم على الوجه الذي يحقق الغاية التي تتجه إليها هذه الحضارة، فالحضارة من حيث الجانبين المادي والمعنوي لا تنقسم؛ وإنما تتكامل، فالحركة الحضارية يجب أن تتم داخل إطار الثبات: ثبات القيم، ثم حركة الوسائل التي تحيل تلك القيم إلى برنامج عملي يميز الحضارة إبان مسيرتها، ويسمها بسمتها الخاص.

وكأمثلة واقعية على ذلك، نجد أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى لم يستطع أن تجري حركته داخل الإطار الطبيعي الذي تتحرك فيه الحضارات من خلال القيم الدينية والعوامل العقيدية؛ لأنه سرعان ما اصطدم بالمسيحية واختلف العلماء والمفكرون مع رجال الدين، وانفصلت الحضارة عن العقيدة، وحاولت إنشاء عقيدة وضعية تحل محل القيم الدينية الأصلية، فتحجر العقل في ظل سلطة رجال الدين.

ومن هنا يتبين لنا مدى التأثير الحيوي الذي تؤديه الفكرة الدينية في تكوين الحضارات، عندما تتقدم العلاقة الحيوية بين النزعة الدينية؛ الممثلة في تعاليم الديانة، وبين السند المحسوس التي تمليها عليه منظومته العقيدية والفكرية، والعقلية الأوروبية في العصور الوسطى والعقلية العربية قبل الإسلام تقدمان لنا صدق هذه الفكرة.

أما الإسلام، فإنه يبني أساسه على فطرة الإنسان، فإذا كان الإنسان مدنياً بطبعه - كما يقال - فهو متدين بفطرته.

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١٥ - ٢٠.

وما كان الله تعالى - جلَّت حكمته - أن يخلق الخلق ويوجد البشر، ثم يتركهم هملاً بلا دين جامع متكامل؛ ذلك لأن الدين نزعة متأصلة في النفوس، والاعتراف بالألوهية حقيقة كامنة في أعماق البشر منذ الأزل.

والدين القيم في نظر الإسلام هو فطرة الله، والناس جميعاً خُلقوا على هذه الفطرة الدينية، وعلى تلك الجبلة القائمة على معرفة الله والاعتراف به ، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1].

وبهذا الفطرة انطلق الإسلام - ومن خلال تعاليمه وقيمه - ليقدم حضارة معطاءة في المجالات شتى، وقدم تفاصيل لتنظيم الحياة من خلال أحكامه الشرعية، ووفر للإنسان أسساً متكاملة لحياة حضارية كريمة لم تتوفر في أي مذهب من المذاهب الفلسفية على اختلافها[2].

ونُتبع هذه الفقرة فقرة أخرى تتعلق بها، وتحكي عن إظهار القرآن الكريم لدور الأنبياء في قيام الحضارة.

إذ بيَّن القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا دعاة عبادة ومعلمي شريعة فحسب؛ بل كانوا مؤسسي مدنيات وحضارات وكانت مواقفهم وسيرهم عبراً وهم قدوة ونماذج تحتذى في البطولة والصبر والتفاني في خدمة الإنسانية، فصارعوا الباطل وقاوموا الظلم وجاهدوا في الله حق جهاده.

وهذه أبرز مظاهر الحضارات، ودور الأنبياء فيها:

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٢) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: الخطيب، ص ٦٩ - ١١٣.

السنة الأولى

تاريخ حضارة قديمة

القسم الأول

الدكتورة

اكتمال اسماعيل

43

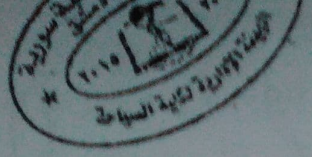

الفصل الثالث

بـلاد الرافديـن

يقصد ببلاد الرافدين ، أو بلاد ما بـين النهرين • المنطقة الواقعـة بين الخليج العربي في الجنوب وهضبة الاناضول في الشمال ونهر الفرات والبادية الشامية في الغرب وجبال زاغروس في الشرق • وتتميز هذه المنطقة بتنوعها البيئي والطبيعي • ويمكن تمييز منطقتين جغرافيتين فيهـا . الاولى في الشـمال وهـي التي عرفت تاريخيا باسم بلاد آشور وهذه المنطقة في أجزاء منهـا جبلية وبخاصـة الشماليـة والشرقية وفي أجزاء أخرى سهلية وبخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري الزاب الاعلى والادنى رافدي نهر دجلة، والخابور والبليخ رافدي نهر الفرات • وتتلقى هـذه المنطقة كميات من الامطار في بعض نواحيها تتجاوز الالف ملم سنويا • والثانية في الجنوب وهي التي عرفت تاريخيا باسم بابل • وتقسم الى قسمين الجنوبي منها وهي سومر التاريخية والقسم الشمالي منها أي وسط بلاد الرافدين وهي أكاد التاريخية • وهذه المنطقة سهلية واسعة تتلقى كميات من الامطار لا تتجاوز المائة ملم سنويا • ولكن وجود نهري دجلة والفرات يعوض هذا النقص في المياه •

وكما كان حال نهر النيل في مصر اذ مثل عصب الحياة فيهـا ، كذلك الامر بالنسبة لنهري دجلة والفرات اللذين ينبعان مـن الهضبة الأرمنية شـمال بـلاد الرافدين ، فهما عصب الحياة في هذه البلاد •

فنهر دجلة الذي ينبع من بحيرة صغيرة تقع الى الغرب من بحيرة ڤان والذي يبلغ طول مجراه نحو ١٩٠٠ كم ينحدر بسرعة نحو الجنوب الشـرقي الى مناطـق

أهم مواقع العصر الحجري الوسيط والحديث في المشرق

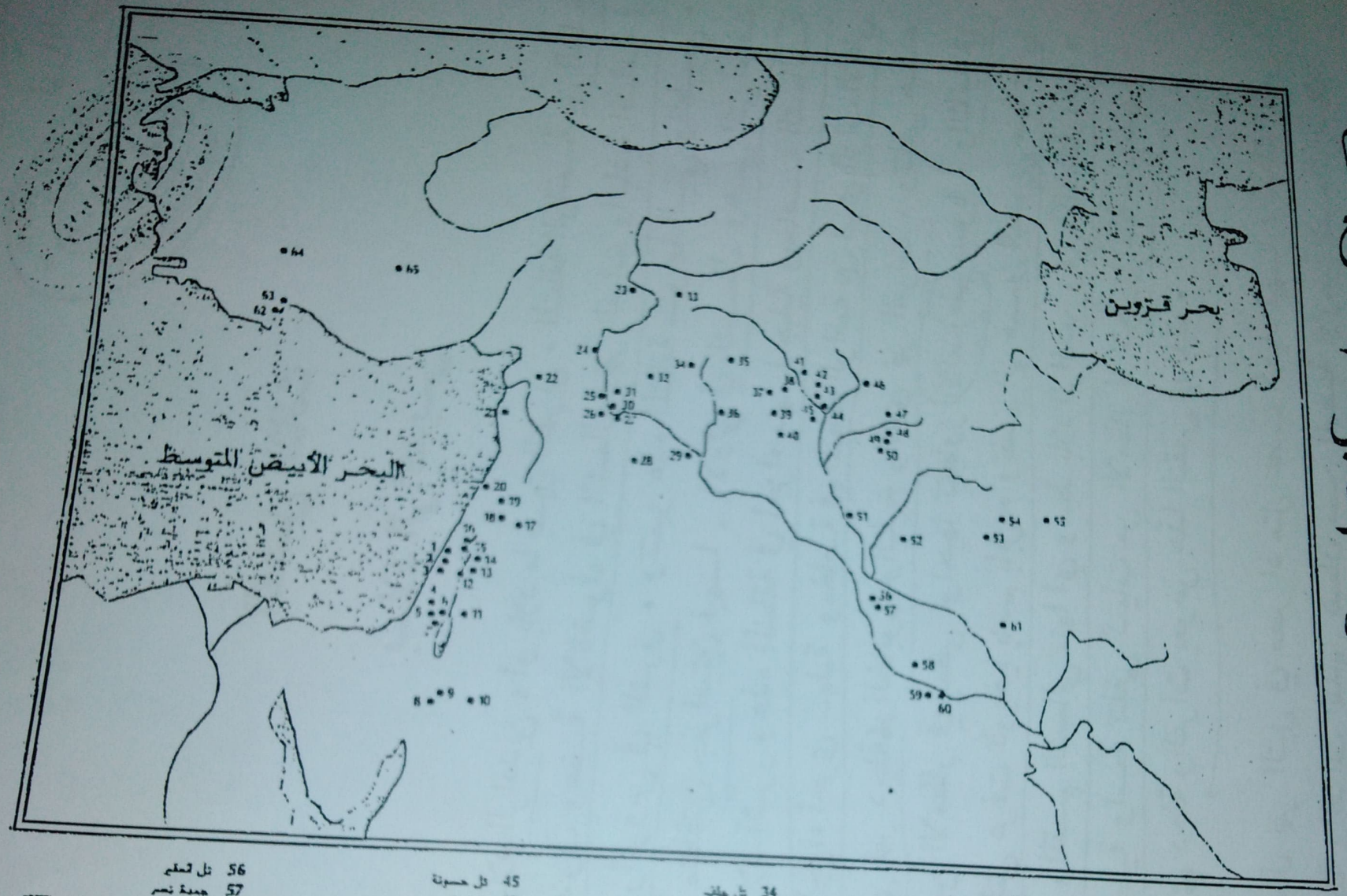

1 عين الملاحة
2 مغارة الوعر
3 مغارة الكبارا
4 وادي الجوف (مغارة شقفة)
5 أبو هوش
6 أريحا
7 الخيام
8 جبل الخويف (هاروفيف)
9 القبيضا
10 البسيطة
11 تلول الفول
12 منهاتا
13 عين حف
14 هنيشورم
15 وادي الفلاح
16 بيشون
17 تل نمود
18 تل الرمح
19 أرمس تليلة
20 جبيل
21 رأس الشمرة
22 سهل العمق
23 كفر هوبرك
24 تل يونس (كرشميش)
25 جبل عروبة
26 حمومة الكثيبة
27 تل أبو هريرة
28 الكوم
29 تل بلوص
30 تل الريحة
31 تل الشيخ حسن
32 تل أسود
33 نشاشوبو
34 تل حلف
35 شاقلز بازار
36 تل حسي أبيض
37 تل الغزالية
38 بوريم تبة
39 قرمز ديرة
40 أم القصلغية
41 نصريك
42 تبة جورا
43 تل الملائك
44 تل الأريجية
45 تل حسونة
46 زاوي شمس
47 تل شمشارا
48 زرزاي
49 كريم شاهير
50 جارمو
51 تل الصوان (سنجرلي)
52 شوحا منحي
53 تبه حوران
54 حشيبي ثلوه
55 تبه جيان
56 تل العلق
57 جمدة نصر
58 أوركان
59 تل العبيد
60 تبو شهرين (أريدو)
61 عش كوش
62 بلبلتي
63 بلسبي
64 مانشبلار
65 شاغل هوبرك

نينوى واشور وأما الفرات الذي ينبع من بحيرة ڤان فانه يسير بداية نحو الغرب بمجرى متعرج حتى مدينة كركميش (جرابلس الحالية) حيث يكون أقرب ما يكون من البحر المتوسط حيث لا يبعد عنه سوى ١٥٠ كم . ثم ينعطف نحو الجنوب الشرقي في المنطقة التي تسمى بالمنعطف الكبير لنهر الفرات . ويقترب من نهر دجلة في منطقة سيبار قريبا من بغداد الحالية . ليبتعدا بعد ذلك عن بعضهما موسعين من السهل الخصيب الذي يشكلانه قبل أن يقتربا مجددا من بعضهما وتمتزج مياههما في شط العرب ليصبا بعد ذلك في الخليج العربي . ونشير هنا الى وجود عدة روافد لكلا النهرين في بلاد الرافدين ومناطق الجزيرة ، فدجلة يرفده بشكل أساسي ثلاثة أنهار وهي الزاب الاعلى والزاب الادنى والديالي . وأما الفرات فله رافدان أساسيان وهما الخابور والبليخ . ومع الفيضان السنوي لهذين النهرين في موسم ذوبان الثلوج على الهضبة الأرمنية كانا يحملان معهما الخصب المتمثل بالطمي واللحقيات الاخرى الى بلاد الرافدين مما كان يزيد من خصوبة الارض . وبالمقابل دفع هذا الامر بعض الباحثين بخاصة في مجال الجيولوجيا ، للقول ان الخليج العربي في الازمنة السحيقة كان يصل الى مناطق في قلب بلاد الرافدين الحالية وأن الطمي الذي يجلبه النهران هو الذي أدى الى تراجع شواطئه الى المكان الذي هي فيه حاليا .

وكما أشرنا آنفا فان بابل كانت تتلقى كميات قليلة من الامطار لا تكفي لقيام زراعة منتجة تسد حاجة السكان ولذلك كان لا بد من الاعتماد على حياة نهري دجلة والفرات وروافدهما في تأمين المياه اللازمة للري ولذلك نشطت عمليات حفر الاقنية والترع التي تصل مياههما ومياه روافدهما الى أبعد ما يمكن وذلك حرصا على توسيع الرقعة المزروعة أكبر قدر ممكن . ولكن الطمي الذي يحمله النهران معهما سنويا كان يؤدي الى تراكم التراب في هذه القنوات وانسدادها وجعلها غير صالحة في عمليات الري ، مما كان يتطلب تنظيفها وترميمها وبناء قنوات جديدة بشكل دائم وهذا كان مصدر فخر لحكام مختلف المدن السومرية التي قامت في هذه البلاد ، وبالوقت نفسه أصبحت هذه القنوات مصدرا للمنازعات والحروب بين المدن المختلفة التي كانت تسعى كل منها للسيطرة على أكبر عدد منها وبالتالي

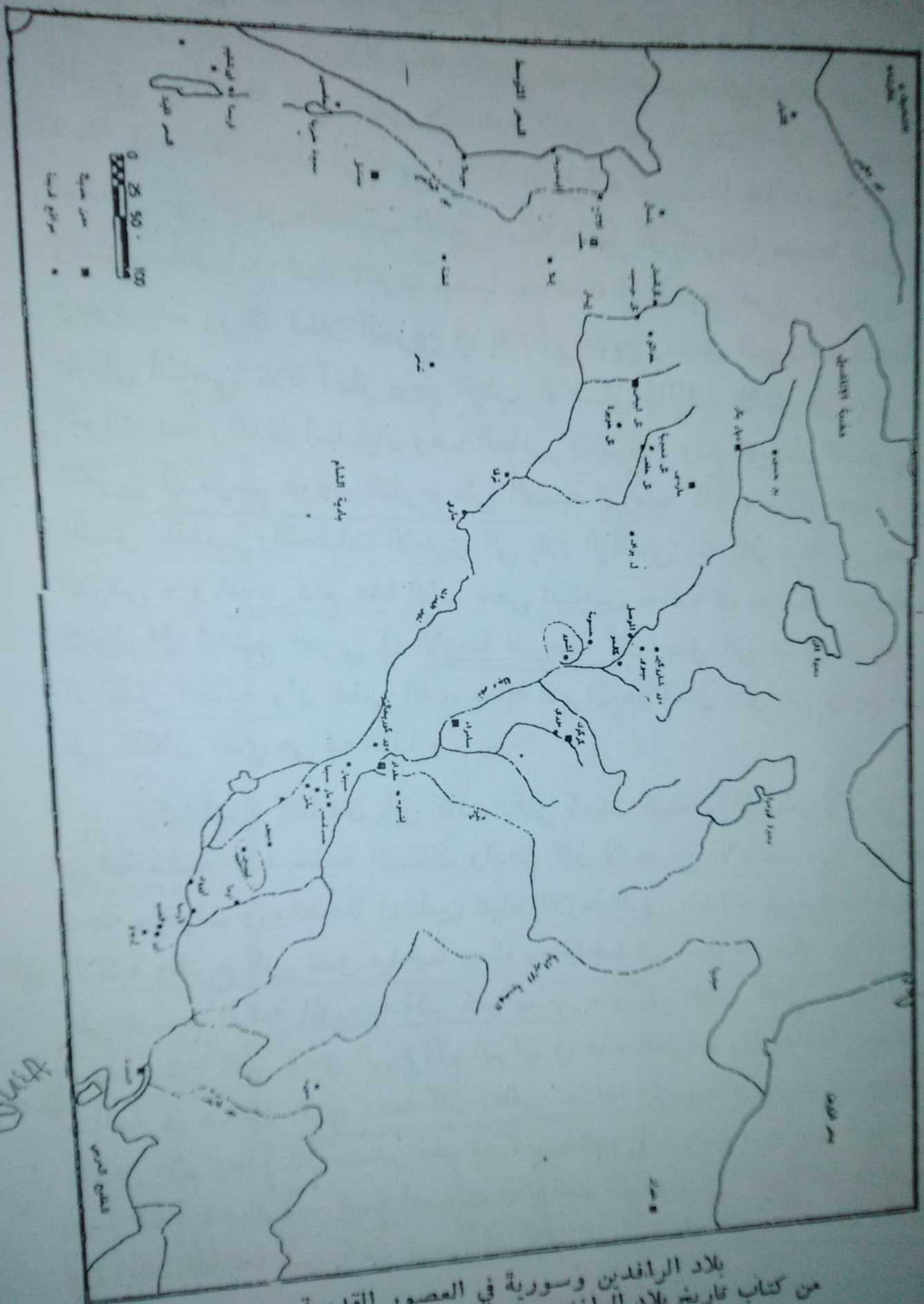

بلاد الرافدين وسورية في العصور القديمة
من كتاب تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور د. عيد مرعي

ازدياد رقعتها الزراعية • وبسبب طبيعة مجرى نهر دجلة المنحدر والسريع فان استخدامه في عملية الري عن طريق القنوات كان أكثر صعوبة من نهر الفرات ذي المجرى الواسع وبطيء الجريان نسبيا ولذلك نلاحظ أن أغلب القنوات قد رشقت على هذا النهر وبالتالي فان أقدم وأغلب المدن قامت على شطآنه •

ومنذ أقدم العصور ازدهرت زراعة الحبوب (قمحا وشعيرا) في السهول الواسعة في الجنوب وفي مناطق الجزيرة لا سيما بين نهري الخابور والبليخ وبين الزابين الأدنى والاعلى • وتأتي بعدها زراعة أشجار النخيل الى جانب اشجار مثمرة وخضراوات أخرى مختلفة وانتشرت المراعي على نطاق واسع بخاصة في مناطق السهول الجبلية في بلاد آشور اضافة الى المناطق الواقعة على أطراف نهري دجلة والفرات • وبسبب فقر البلاد بثرواتها الطبيعية فقد اضطرت لاستيراد ما تحتاجه من البلاد الاخرى • فالاخشاب استوردت بشكل أساسي من سورية والنحاس من مناطق مختلفة منها قبرص والاناضول وماجان • والفضة من مناجم جبال طوروس جنوب شرق الاناضول والذهب من مناجم الاناضول ومن مصر والقصدير من ايران وأذربيجان • وبعض الاحجار كان يؤتى بها من جبال زاغروس وبعضها الآخر من أفغانستان •

وقد اتصل سكان بلاد الرافدين مع البلاد المجاورة سواء شرقا أم غربا بطرق برية • أما جنوبا فكانت الطريق بحرية وعبر الخليج العربي حيث كانت السفن تنطلق محملة ببضائعها من ميناء مدينة أور لتصل دلمون (البحرين) ومنها الى ماجان (شواطىء الخليج العربي الشرقية) وملوخا (الشواطىء الهندية) وأما الى سورية فقد استخدم طريقان رئيسان للاغراض التجارية والعسكرية • وهذان الطريقان كانا يتخذان من مجرى الفرات بداية لهما وصولا الى ماري على المجرى الموسط لنهر الفرات ومن هناك كان بالامكان التوجه الى كركميش ومنها الى الاناضول أو الى حلب ومنها جنوبا عبر حمص الى دمشق ففلسطين ومصر • أو من حلب الى وادي العاصي ومن هناك كانت الطريق تتجه اما شمالا الى الاناضول أو غربا الى شواطىء المتوسط • وهذه الطريق كانت أطول ولكنها أكثر أمانا من الطريق الثانية

التي كانت تنطلق من ماري الى دمشق عبر تدمر وحمص • وأما الى ايران أي شرقا فان المسالك كانت أكثر صعوبة بسبب عدة عوامل منها الحواجز الجبلية التي كانت تقف عائقا مع اتصال البلدين الا من خلال بعض الممرات وبسبب وجود قبائل معادية في هذه الجبال تطمح للنزول من مقراتها الصعبة والفقيرة والاستقرار في بلاد الرافدين •

- ادوات حجرية للزينة
- بلاطة لطحن اغذية البناء

الفصل الرابع

عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين*

من المعلوم أن اختراع الكتابة في الثلث الاخير من الالف الرابع ق٠م (نحو ٣٢٠٠ ق٠م) يشكل الحد الفاصل بين ما يسمى بعصور ما قبل التاريخ وتلك التي تعرف بالعصور التاريخية ٠

وكان الانسان وقبل أن يتوصل الى هذا الكشف الهام بنحو أربعة آلاف عام قد بدأ بالانتقال من مرحلة الاعتماد على الصيد والالتقاط لتأمين غذاءه ومن السكن في المغاور والكهوف ، الى مرحلة الاستقرار وبالتالي الاعتماد على الزراعة وتدجين الحيوانات لتأمين غذاءه محققاً ما يعرف بالثورة النيوليتية أو ثورة العصر الحجري الحديث ٠

ومنذ البداية نشأ خلاف في أوساط الباحثين المهتمين بدراسة هذه المرحلة ، حول المكان الذي بدأت فيه هذه الثورة ، أي المكان الذي بدأ فيه الانسان أولى محاولاته لزرع غذاءه وتحديداً الحبوب ٠

فالباحث الأمريكي بريدوود اعتقد أن منطقة جبال زاغروس في شمال العراق، كانت هي الوطن الأول الذي انطلقت منه الزراعة لتعم أرجاء العالم فيما بعد٠ وقد استند بريدوود في فرضيته هذه الى مجمل الظروف البيئية والمناخية السائدة في هذه المنطقة والتي تجعلها مؤهلة لتكون موطن الزراعة الأول ٠ ولإثبات فرضه هذا بدأ بريدوود في خمسينات هذا القرن بإجراء مسح لهذه المنطقة الى أن وقع اختياره على موقع جرمو الذي عده الموقع الذي انطلقت منه الزراعة لأول مرة ٠

يقع موقع جرمو الى الشرق من مدينة كركوك الحالية وتبلغ مساحته ١ر٥ هكتاراً وسماكة طبقاته الأثرية سبعة أمتار . وحوى الموقع ست عشرة طبقة أثرية ، بعضها يعود الى النصف الثاني من الألف السابع ق.م ، أي العصر ما قبل الفخارة في حين تعود طبقات أخرى الى العصر الفخاري .

وفي عصر ما قبل الفخار كان سكان جرمو يعيشون في بيوت من الطين والحجر مسقوفة بالطين والقصب . وكان لكل بيت مدخله الخاص ، أما الغرف فتحيط بساحة عامة وكانت هناك غرف للنوم وأخرى للتخزين ، وكانت الغرف مزودة بمواقد وتنانير اضافة الى عدد كبير من التماثيل الطينية بعضها لنساء وأخرى لحيوانات . ودلت المكتشفات على أن سكان هذه المنطقة صنعوا خواتم وأساور حجرية . كما استخدموا العظام لصناعة المخارز والقلادات والحلي والملاعق والإبر .

أما عن الأعمال التي كان يمارسها سكان هذه المستوطنة فكانت الزراعة ، الأمر الذي دلت عليه أدوات طحن الحبوب التي عثر عليها ، وقد زرعوا القمح والشعير والذرة والعدس . اضافة الى استمرارهم في ممارسة الالتقاط وصيد الحيوانات البرية(١) .

إن نتائج أعمال بريدوود في موقع جرمو لم تستطع أن تثبت فرضيته في الموطن الأول للزراعة لذلك انتقل الى موقع آخر لا يبعد عنه كثيراً يدعى كريم شاهير وهنا وجد دلائل عن ممارسة الزراعة وفي فترة تسبق فترة جرمو . إلا أن هذا الموقع لم يعط الاجابة الحاسمة أيضاً حول مسألة نشأة الزراعة .

إن الأبحاث التي أجراها جاك كوفان في منطقة المريبط بخاصة السوية الثالثة أثبتت أن السكان الذين كانوا يعيشون هنا قد مارسوا الزراعة وقبل سكن جرمو بعدة قرون . في الألف السادس ق.م حدث تطور مهم في حضارات بلاد الرافدين بخاصة في تقنيات البناء حيث بدىء باستخدام اللبن المقولب وازداد استخدام

(١) سلطان محيسن : بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ ـ المزارعون الاوائل دار الابجدية ١٩٩٤ ص ٧٢ ٧٣ .

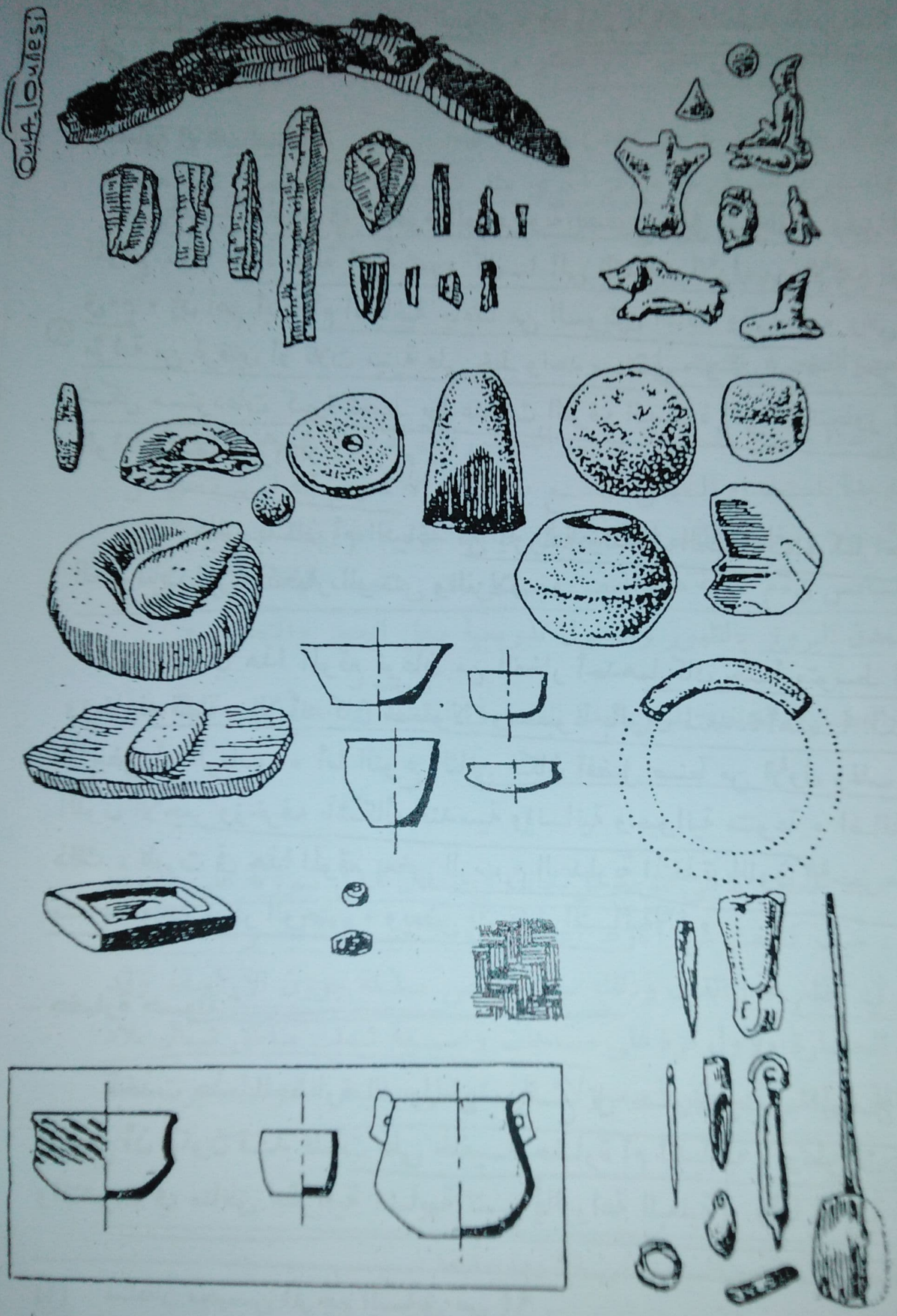

آثار من جرمو عن د. محيسن

الملاط الكلسي وتنوعت أشكال البيوت . أما أهم المراكز الحضارية من هذا العصر فهي أم الدباغية وحسونة وسامراء .

- حضارة أم الدباغية :

يقع هذا الموقع في التخوم الصحراوية لسفوح جبل سنجار . وميز في هذا الموقع ثمان عشرة طبقة أثرية تعود كلها الى النصف الأول من الألف السادس ق.م . إن أهم أبنية أم الدباغية جاءتنا من السويتين الثالثة والرابعة . وهي بيوت مؤلفة من غرفتين أو ثلاث مبنية على خط واحد مستقيم . وظهر نموذج آخر على شكل مستودعات كبيرة تحيط بها عشرات الغرف الصغيرة التي لا تتجاوز أبعاد الواحدة منها ١ر٧٠ × ١ر٦٠ م .

لقد عاش سكان أم الدباغة من الزراعة وتدجين الحيوانات ، كما اصطادوا الحيوانات البرية كحمار الوحش والغزلان .

وظهر في هذا الموقع نوعان من الفخار أحدهما كان خشناً متوسط الجودة وزخارفه قليلة ، إلا أنه كان مصقولاً ومصبوغاً بألوان متعددة أهمها الكريم أو الأبيض أو الرمادي . أما النوع الثاني فكان أفضل صنعاً من الأول وغلب عليه اللون الأحمر وزخرف بأشكال هندسية وإنسانية وحيوانية متنوعة . اضافة الى ذلك ، ظهرت في هذا الموقع بعض الرسوم الجدارية المنفذة باللون الأحمر من بينها مشاهد صيد حمار الوحش . وبعض التماثيل النسائية[٢] .

- حضارة حسونة :

أخذت هذه الحضارة اسمها من موقع تل حسونة جنوب الموصل . ومن المرجح أن تكون قد نشأت على خلفية حضارة أم الدباغية ، وتطورت عنها ، وانتشرت في مناطق جغرافية مشابهة تتسم بالزراعة البعلية . وأما الأبنية فتنوعت

(٢) سلطان محيسن المرجع السابق ص ٩٤ .

مثل تل الصوان لأول مرة بسور دفاعي مدعم بالعضائد وكانت سماكة جدرانه ٢٫٥ م وحفر في الأرض على عمق ثلاثة أمتار .

تميزت المرحلة الثالثة من هذه الحضارة بهجر بعض مراكزها (مثل تل الصوان) واستمرار السكن في مراكز أخرى مثل شوجامامي . وحصل تغير هام في صناعة الفخار . فاختفت الزخارف الطبيعية الرائعة التي ميزت المرحلة السابقة وحلت محلها زخارف هندسية عادية(٤) .

حضارات العصر الحجري النحاسي :

ويدعى هذا العصر بالعصر الحجري النحاسي لأن الانسان في هذه المرحلة من تاريخه بدأ باستخدام النحاس لصنع بعض أدواته ، رغم أنه لم يتخل عن استخدام الأحجار وبخاصة الصوانية منها في حياته اليومية . وبعد النصف الثاني من الألف السادس ق.م بداية هذا العصر ويستمر حتى منتصف الألف الرابع ق.م عندما بدأ معدن البرونز بالظهور والحلول تدريجياً محل الحجر والنحاس .

وتعد الحضارة الحلفية الممثل لهذا العصر في المنطقة الرافدية السورية .

- تل حلف :

تنسب هذه الحضارة الى موقع تل حلف في شمال شرق سورية على ضفاف نهر الخابور ، حيث كشفت عن آثارها أعمال بعثة التنقيب الألمانية برئاسة ماكس فون أوبنهايم في مطلع هذا القرن وذلك تحت أنقاض مملكة جوزن الآرامية. وقد انتشرت هذه الحضارة ولأول مرة على مساحات واسعة شملت مناطق شمال بلاد الرافدين اضافة الى شمال سورية وصولاً الى شواطىء البحر المتوسط عبر منطقة العمق السورية .

---

(٤) سلطان محيسن المرجع السابق ص ٩٨ وما بعدها .

وأما أهم مواقع هذه الحضارة في بلاد الرافدين فهما موقعا العربجية وتبه كورا .

وقد تميزت الحضارة الحلفية بخاصة بأوانيها الفخارية الملونة والمزخرفة . ودلت نتائج التنقيب الأثري في موقع العربجية على تعدد أشكال وألوان وزخارف الأواني الفخارية ، الى درجة ندرة تواجد الأواني غير الملونة والمزخرفة .

أما عن أشكال هذه الأواني ، فقد جمعت ما بين الطاسات ذات القواعد المسطحة والأواني المقعرة والصحون مسطحة الشكل وغيرها . وأما الرسوم الزخرفية فضمت رسوماً هندسية ذات أشكال مثلثة ومربعة وذات خطوط مستقيمة وأخرى متعرجة . اضافة الى الطيور والأسماك والثعابين وحيوانات أخرى ، ووجدت في بعض الأحيان أشكال انسانية . وأما الألوان التي طليت بها الأواني فكانت الاحمر والبني بشكل أساسي .

وتعددت أشكال الأبنية وتنوعت وظائفها في هذا العصر . فهناك أبنية دائرية ذات سقف مقبب ، أساساتها حجرية وجدرانها من اللبن ولكل منها مدخل مستقل .

ونتيجة العثور على بعض التماثيل الصغيرة التي ترمز للإلهة الأم ، فان بعض الباحثين يميل الى عدد هذه المباني ، مباني ذات وظيفة دينية . وفي مرحلة لاحقة من عمر هذه الحضارة ظهرت أبنية مستطيلة كبيرة المساحة ، وبالوقت نفسه ازداد استخدام البيوت الدائرية وكبرت أحجامها . أما في المرحلة الأخيرة من حياة هذه الحضارة ، فقد لوحظ اختفاء الأبنية الدائرية (الدينية) لتحل محلها بيوت كبيرة مستطيلة مبنية من اللبن المدكوك .

أما عن النشاطات الاقتصادية التي مارسها الانسان الحلفي ، فقد استمر هذا الانسان بزراعة القمح والشعير والكتان والقنب ودجن الغنم والماعز والخنزير واصطاد الغزال والحمار الوحشي والثور البري . ويدل ظهور ما يمكن أن نسميه

فخار العبيد عن د. محيسن